مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية، م ٣٢ ع ٥ ص ص : ٤٤٩ – ٤٦٣ (٢٠٢٤ م)
DOI: 10.4197/Art.32-5.14

جدلية الحكي والصمت في قصة "اللسان" لإبراهيم الكوني

شريفة بنت إبراهيم بن محمد بن طالب [١]، ومحمد عبد العظيم أبو بكر بنعزوز [٢]

[١] أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية التربية، جامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز، الخرج، المملكة العربية السعودية ،

[٢] أستاذ الأدب والنقد، قسم الدراسات العربية، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المملكة المغربية

s.bintaleb@psau.edu.sa

المستخلص: تعد جدلية الحكي والصمت من المباحث التي تكتسي أهمية بالغة في الأدب عموما وفي الخطاب السردي على وجه الخصوص، وهي من الموضوعات الجديرة بالدراسة لأنها تبرز الجانب التجاذبي والتدافعي في النص من خلال مكوناته الحكائية التي تتفاعل فيها مجموعة من العناصر، في مقدمتها الشخصيات. وهي صورة من صور التفاوت في سلم المجتمع الذي تحضر فيه هذه الجدلية، ويتحول فيه كل سيد إلى مسود لسيد آخر. إن التعرف على جدلية الحكي والصمت في الخطاب السردي، وتفاعلها داخل البنية الحكائية للقصة في ارتباطها بجميع مكوناتها، هي ترجمة لجدليات أخرى داخل المجتمع. واعتمدنا مقاربة بنيوية تركز على دراسة البنية الحكائية للقصة بصفتها أرضية سانحة لتجلية جدلية الحكي والصمت في القصة والثنائيات المعبرة عنها، وهي قائمة على مجموعة من الآليات أهمها: الوصف والتحليل والتفسير والتأويل لسبر أغوار هذا النص السردي. وقد توصل البحث إلى النتائج إلى أن جدلية الحكي والصمت ثنائية مترابطة متداخلة وهي في القصة تعادل ثنائية الموت والحياة أو الوجود والعدم، وقد أدت دورا فاعلا في تحريك عجلة السرد والمضي به قدما نحو التأزم في الأحداث وعلائق الشخصيات.

الكلمات المفتاحية: جدلية، صمت، حكي، دلالة، بنية حكائية، مقاربة بنيوية.

مقدمة

تعد القصة القصيرة من السرود المعبرة عن مواقف حياتية ترتبط فيما بينها بروابط حدثية ومنطقية تجسدها شخصيات من خلال أفعالها المنتجة والمتلقاة وعلائقها التي قد تقوم في جوانب منها على المشاركة والتعاون والتكامل، وقد تقوم في جوانب أخرى على الصراع والتدافع من أجل تحقيق مصلحة أو دفع مضرة عامة أو خاصة.

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية، م ٣٢ ع ٥ ص ص : ٤٤٩ – ٤٦٣ (٢٠٢٤ م)
DOI: 10.4197/Art.32-5.14

قصة "اللسان" للكاتب الليبي إبراهيم الكوني[١] تعبير عن موقفين مختلفين من قضية سيطرت على القصة كلها، وهي أن السيد يحكي والعبد يستمع ولا يحكي، وهذا ما لم يقبله العبد، لكنه تظاهر بقبوله بحضور سيده، وفي غيابه حكى ما سمعه لإبل سيده. فالقصة قائمة على جدلية الحكي والصمت التي تظهر آثارها بارزة على مستوى البنية الحكائية للقصة من خلال أحداثها وعلائق شخصياتها وتحولاتها، وهي ثنائية كبرى في هذه القصة تناسلت عنها جملة من الثنائيات التي أبرزت جوانبها الدلالية.

وقد اعتمدنا في هذا البحث على مقاربة بنيوية تركز على دراسة البنية الحكائية للقصة بصفتها أرضية سانحة لتجلية جدلية الحكي والصمت في القصة والثنائيات المعبرة عنها.

وقد عثرنا، ونحن نستقصي الدراسات السابقة في الموضوع، على مقالة واحدة، من ثمان صفحات فقط، لا علاقة لها بموضوعنا بشكل مباشر، وهي بعنوان: بنية التضاد: قراءة في البنية السردية لقصة اللسان "لإبراهيم الكوني"، وقد صدرت ضمن كتاب "تحليل النصوص الأدبية: قراءات نقدية في السرد والشعر"[٢] من تأليف عبد الله إبراهيم وصالح هويدي. ولعل الكتاب موجه بالأساس لطلاب الجامعات حتى يستعينوا به في تحليل نصوص أدبية مختلفة.

وقد ركزت المقالة على تجلية بنية التضاد على مستوى الشخوص[٣] والحدث والدلالة. ولم تتطرق لجدلية الحكي والصمت في القصة، وهي موضوع بحثنا.

تمهيد: تحديد المفاهيم

– مفهوم الجدلية:

الجدلية تجاذب بين أمرين مختلفين في ذات واحدة أو أكثر، قد يؤدي تجاذبهما إلى تدافع ينتهي بسيطرة أحدهما على الآخر. ويعرفها جميل صليبا في معجمه الفلسفي بأنها "طريقة الفكر الذي يوجه حركته إلى جهات متعارضة تؤثر فيه تأثيرا متقابلا يفضي في النهاية إلى تقدمه، كجدل الحدس والقياس، والحب والواجب، والعبد والسيد."[٤]

وفي النص الذي بين أيدينا تحضر بقوة جدلية الحكي والصمت وما ينبثق عنهما من مترادفات تشترك معهما في معانيهما.

---

(١) شاعر وكاتب ليبي، حصل على الليسانس ثم الماجستير فى العلوم الأدبية والنقدية من معهد غوركى للأدب العالمي بموسكو١٩٧٧م، يجيد تسع لغات وكتب ستين كتابا حتى الآن، قاص وروائي، يقوم عمله الأدبي القصصي على عدد من العناصر المحدودة، خاصة عالم الصحراء بما فيه من ندرة وامتداد وقسوة وانفتاح على جوهر الكون والوجود. وتدور معظم قصصه على جوهر العلاقة التي تربط الإنسان بالطبيعة الصحراوية وموجوداتها وعالمها المحكوم بالحتمية والقدر الذي لا يرد.

(٢) دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط١، ١٩٨٨.

(٣) هذا ما ورد في المقالة، والصواب: الشخصيات.

(٤) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج١، ١٩٨٢م، ص٣٩٤.

– مفهوم الحكي:

الحكي قول مسموع أو مكتوب مرتبط في مضمونه بمادة حكائية خبرية أو قصصية، مما يشي بخصوصية هذا القول المرتبطة بما يقص ويحكى. فكلمة "حكى" في اللغة العربية بمعنى "روى" و"حدث" و"سرد"[٥]، وهي تفيد في هذه القصة معنى إعادة الرواية والحكي، لأن النبيل يحكي ما سمعه من الزعيم.

وهذا يضعنا في موقف المقارنة بين عام وهو الصمت وخاص وهو الحكي. وحتى تكون المقارنة مقبولة في تجلية الجانب الجدلي فيها سنوسع مفهوم الحكي ليشمل كل قول سواء كان حكاية أو غير ذلك من أساليب القول المختلفة.

– مفهوم الصمت:

جاء في (لسان العرب) صمت يصمت صمتا وصموتا، والصمت مصدر، والاسم من صمت: الصمتة[٦]. ويقال لغير الناطق: صامت، ولا يقال: ساكت، وأصمته أنا إصماتا إذا أسكته. ويقال: أخذه الصمات إذا سكت ولم يتكلم[٧]. ويتفق أهل المعاجم أن الصمت نقيض النطق والكلام. فمفهوم الصمت رديف تعطل التواصل، وهو يقترن بالموت والعدم والتعطل والاختفاء والاحتجاب والحيرة والكرب[٨] وهو صمت العي والرهبة. والصمت لدى القدامى من العرب هو مذهب التحفظ من الأذى واتقاء الشر يستخدم للتقية، كما أكد ذلك التوحيدي قائلا: "كم إنسان أهلكه لسان، رب حرف أدى إلى حتف، لا تفرط فتسقط، إلزم الصمت، وأخفى الصوت"[٩].

المبحث الأول: البنية الحكائية لقصة "اللسان"

– ملخص القصة:

تتحدث قصة "اللسان"[١٠] لإبراهيم الكوني عن أحد النبلاء الذي انتخب عضوا بمجلس القبيلة بعد وفاة والده، وكان زعيم المجلس يحكي لأعضاء المجلس الكثير من الأسرار التي يرغب أن تبقى مستورة عن الجميع، ويهددهم بسيفه إن هم أفشوا ما يدور في المجلس. وحينما يرجع النبيل إلى خبائه يحكي ما سمعه من الزعيم لعبده، ويهدده بالقتل إن حكى ما سمعه منه، مما اضطر العبد إلى إفراغ ما في صدره من أسرار، بحكيها لإبل سيده التي لم تتحمل ذلك فنفقت. وهذا ما دفع سيده إلى قطع لسانه مما أدى إلى موته بعد ذلك.

---

(٥) ينظر: معجم السرديات، لمجموعة من المؤلفين، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ط١، ٢٠١٠م.
(٦) ينظر: لسان العرب: ٥٤/٢(صمت)، وتاج العروس: ٥٩١/٤ (صمت).
(٧) ينظر: جمهرة اللغة: ٤٠٠/١ (صمت)، والصحاح: ٢٥٦/١ (صمت)، والمعجم الوسيط: ٥٢٢ (صمت).
(٨) ينظر: في بلاغة الخطاب الأدبي بحث في سياسة العقول: ٢٦.
(٩) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ج٢، ص٦١.
(١٠) إبراهيم الكوني: خريف الدرويش، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الجماهيرية العربية الليبية، ط٣، ١٩٩٦م.

– دلالة العنوان:

وردت مفردة "اللسان" في القصة في مواطن كثيرة للدلالة على معان مختلفة. قصد بها **لسان النار، ولسان السيف، ولسان السوط، ولسان النبيل، ولسان العبد.** لسان النار يشير على الظرف الزماني/الليل، الذي كانت تجري فيه الأحداث، وهو لسان ذو فاعلية في الإضاءة وكذلك في الأجواء التي يوفرها ضوء النار أثناء حكي النبيل المستمر كل ليلة لأسراره التي يتحرك بها لسانه ويخص بها عبده. وتتجلى فاعليته كذلك في زيادة لمعان السيف الحاد الذي كان يشهره النبيل في وجه عبده تهديدا له إن هو أفشى ما سمعه لأي أحد. كما قام لسان النار بدور في اللمعان الشبيه بالبرق الذي تحدثه ضربات السوط القوية التي انهال بها النبيل على جسد عبده بعدما اكتشف أنه أفشى أسراره للإبل فأهلكها، ولم يكتف بذلك، بل قطع لسانه الذي كان وسيلة الإفشاء وسبب الهلاك.

– الأحداث ودوافعها:

يشتمل هذا النص السردي على مجموعة من الأحداث أهمها:

- أمر النبيل لعبده بأن يجالسه في مجلسه كل ليلة ويسمع منه ما سيرويه له، ودافعه أنه ليس له جليس يثق به سواه، خاصة بعد وفاة زوجته.
- طلب العبد من مولاه أن يعفيه من هذا الأمر، لأنه لا طاقة له بتحمل تبعاته، خاصة بعدما أرفق النبيل أمره بتهديده بالقتل بسيفه إن هو أذاع ما سمع.
- جلوس النبيل مع عبده كل ليلة ليفضي له بأسراره، خاصة ما تعلق منها بما يدور في مجلس الحكماء. وهو حدث متكرر يحدث كل ليلة، ودافعه التنفيس عن نفسه.
- ملاحظة النبيل نفوق بعض إبله بعد هزالها ومرضها بسبب غير معروف.
- إحضار النبيل لساحر أعمى من قبيلة بعيدة لعله يرشده إلى سبب نفوق إبله.
- قيام الساحر بفحص الإبل دون أن يتمكن من معرفة السبب.
- نفوق أعز إبل النبيل وتحيره في الأمر.
- إحضاره للساحر مرة أخرى لعله يعرف سبب ذلك.
- قضاء الساحر ليلة كاملة في خباء النبيل دون أن يعرف أحد ما دار بينهما من حديث، وتكرر ذلك مرة أخرى.
- جلوس النبيل مع عبده، كما كان يفعل في السابق، ليحكي له بعض أسراره.

- اقتفاء النبيل أثر العبد بعد انقضاء الجلسة ليعرف المكان الذي يتوجه إليه بعد خروجه من مجلسه.
- اكتشاف النبيل أن عبده يعيد حكاية ما سمعه من سيده إلى أحد جماله لينفس عن نفسه ما أرهقها من محكيات سيده.
- مرض الجمل وهزاله وموته بعد ذلك بفعل ما هده مما سمع من العبد.
- قطع النبيل لسان عبده انتقاما منه لعدم التزامه بما أمره به.
- موت العبد بسبب ذلك فاغرا فاه بدون لسان.

- الشخصيات:

الشخصيات البارزة في هذه القصة هي:

- النبيل: هو أحد أعيان قبيلته في الصحراء، وأحد أعضاء مجلس حكمائها.
- العبد: شيخ كبير في السن ورثه النبيل عن والده.
- الزعيم: هو زعيم مجلس الحكماء، ولعله شيخ القبيلة كذلك.
- الساحر: هو الرجل الذي استعان به النبيل ليكشف له سر نفوق إبله، وقد وصف في النص بأنه أعمى ومن قبيلة بعيدة.
- ويعد النبيل والعبد الشخصتين البارزتين في القصة، لأن جميع الأحداث تتعلق بهما، ومن ثم يمكن وصفهما بالشخصيتين الرئيستين فيها. أما الزعيم والساحر فهما شخصيتان ثانويتان، إلا أن أحدهما، وهو الساحر، مساعد للشخصية الرئيسة/النبيل، ساعده في الكشف عن سبب نفوق الإبل. والآخر معارض له، وهو الزعيم الذي يشكل مصدر خوف دائم للنبيل إن هو أفشى ما يسمعه منه في مجلس الحكماء.
- وثمة شخصيات أخرى هامشية أو عرضية أثثت فضاء هذا النص من مثل:
- أعضاء مجلس الحكماء.
- الرعاة.

- علائق الشخصيات:

العلاقة البارزة في النص هي علاقة النبيل بعبده، وعلاقة العبد بسيده. فعلاقة النبيل بعبده هي في البداية علاقة سيد مالك بمملوكه، وهي علاقة قائمة على الاستعباد والاستغلال لتحقيق مصالح النبيل

على المستوى النفسي في المقام الأول، من خلال الاستماع المتكرر لأحاديثه التي لا يستطيع أن يحكيها لغيره، وهي تتعلق بما يتلقاه من زعيم الحكماء من أسرار. والتلقي في المجلسين؛ مجلس الحكماء ومجلس النبيل، قائم على التهديد والوعيد لكل من تسول له نفسه إفشاء ما سمعه في مجلسه، وللمجالس أسرار كما يقال.

ومن ثم فعلاقة النبيل بعبده منبثقة عن علاقة الزعيم بالنبيل في مجلس الحكماء. يقول السارد: "خاطب العبد وهو يقلب في وجهه السلاح النهم: "الزعيم يجرد في وجوهنا سيفه ما أن ندخل خباء المجلس، ويتعمد أن يترك السيف خارج الغمد طوال الاجتماع. الزعيم يرى أن قوة القبيلة تقاس بقدرة عقلائها على كتمان سرها. فإن أفشى عاقل لها سرا عرض القبيلة للخراب (..) فاسمع يا بوبو بأذنيك، وتذكر بعينيك لسان هذا السلاح الذي يفوق لسان النار جشعا لأنه سيرتوي من دم رقبتك إذا خالفت الناموس، وأذعت لي يوما سرا، لأن سيف الزعيم سوف يشرب من دم رقبتي أيضا إذا أذعت للمجلس سرا."[١١]

إن علاقة النبيل بعبده شبيهة بعلاقة الزعيم بالنبيل، فالنبيل يتحول إلى عبد في علاقته بالزعيم، ويتحول إلى زعيم في علاقته بعبده، وهي زعامة موروثة وليست مستحقة؛ فقد ورث مال أبيه كما ورث عبده، وورث كذلك عضوية أبيه في مجلس الحكماء، ومن ثم فقد أصبح نبيلا وحكيما بالوراثة فقط.

أما علاقة العبد بسيده فهي علاقة مملوك بمالك، وهي علاقة قائمة على القهر والإكراه على الاستماع اليومي لما يحكيه النبيل ويرويه مما سمعه من الزعيم. وقد حاول العبد التخلص من هذه المسؤولية، مسؤولية الاستماع، لما لها من عواقب وخيمة على نفسه التي لن تقوى على تلقي الأخبار دون إذاعتها مرة أخرى، "رفع العبد رأسه عن الأرض وتوسل: "لم يخطر في بالي يوما أن أتجاسر وأخالف لمولاي أمرا، ولكن مولاي يعرف أن عبده بوبو ليس خيرا من باقي الخلق في الصحراء. ومولاي يعرف أيضا أن الخلق في الصحراء يعاني من الفضول أكثر مما عانى من الوباء في الكثير من الأجيال. فليغفر لي مولاي جسارتي وليعفني من شر الاستماع إلى أسرار المجلس الجليل."[١٢]

ولكن توسله لم يجد نفعا، فقد كان النبيل يتحجج باختياره لهذه المهمة لكونه ليس له أحد غيره يمكنه القيام بهذه المهمة، فهو وحيد خاصة بعدما فقد زوجته في الوباء الذي عرفته الصحراء، ورغب العبد في الاستمرار في هذه المهمة بأن عده صديقا له، وحينما خضع العبد أشهر النبيل سيفه مهددا إياه بالقتل إن أفشى أسرار مجلسه وأذاعها بين الناس الذين لا يثق في أي أحد منهم.

(١١) قصة اللسان، ص ١٦٠.
(١٢) قصة اللسان، ص ١٦٠.

ولكن الذي شوش على علاقتهما هو موت بعض إبل النبيل دون سبب معلوم، مما دفعه إلى الاستعانة بالساحر لمعرفة السبب. فكان الساحر بذلك عنصرا مساعدا للنبيل، وفي الوقت نفسه عنصرا معارضا ومعيقا للعبد لأنه كان سبب انكشاف أمره وقطع لسانه، ثم موته بعد ذلك. وقد حاول العبد الدفاع عن نفسه مبررا حكايته لأسرار سيده لإبله، ولكن دون جدوى، يقول السارد:

"أليس أهون أن أذيع سرك، وسر مجلسك لمخلوقات لا لسان لها، ولكن لها آذان، بدل أن أحدث به الرعاة، فيتحدث به الرعاة إلى الرعاة، فتتناقله القبيلة، ويقع في أذن الزعيم؟ ألم أحم مولاي من بطش الزعيم بعملي الأحمق برغم أني قتلت به جمله الأبلق؟"[١٣].

لقد قطع النبيل لسان عبده، الذي كان سبب موت إبله، وخاصة جمله الأبلق، حتى لا يتكلم مرة أخرى ويذيع أسراره. واستمر النبيل في سرد حكيه لعبده كل ليلة وهو واثق من عدم قدرته على حكايتها مرة أخرى، فمات العبد، بعدما هزل وضعف ولم يعد يقوى على تحمل ما يسمعه من سيده، وصدره مليء بأسرار لم يعرفها غيره لأنه لم يتمكن من حكيها.

حدث ذلك بسبب مساعدة الساحر للنبيل، التي سكت عنها السارد ولم يعرف القارئ بمضمونها. ولكن القارئ يكتشفها فيما بعد من خلال أفعال النبيل. ومن ثم فقد صمت السارد عن القول وحكى الفعل.

– التحولات:

يشتمل النص على مجموعة من التحولات وتتمثل فيما يأتي:

– تحولات على مستوى الأحداث:

تتمثل التحولات على مستوى الأحداث فيما يأتي:

- حكاية النبيل أسراره لعبده بشرط عدم حكايتها من قبل العبد لأي كان.
- حكاية العبد أسرار سيده للإبل دون علم سيده.
- نفوق الإبل بسبب ذلك.
- اكتشاف السيد سبب نفوق الإبل.
- قطع السيد لسان عبده.

– تحولات على مستوى الشخصيات:

تتجلى هذه التحولات فيما يأتي:

(١٣) قصة اللسان، ص ١٦٤.

- تحول العبد من مكلف بخدمة سيده إلى مؤنس لوحدته ومستمع لحكاياته.
- تحول العبد من مستمع لحكايات سيده إلى حاك لها.
- تحول العبد من حاك إلى عاجز عن الحكي بعدما قطع سيده لسانه.
- تحول العبد بعد ذلك من حي إلى ميت.

– **تحولات على مستوى علائق الشخصيات:**

- وتظهر هذه التحولات فيما يأتي:
- عدم قدرة العبد على الوفاء بما ألزمه به سيده من عدم حكاية أسراره.
- تحول علاقتهما من الاتصال القائم على التواصل الحكائي المشفوع بالتهديد والوعيد خوفا من إذاعة العبد لأسرار سيده إلى تواصل حكائي مطلق بدون مخاوف أو تهديدات بعدما قطع السيد لسان عبده. "ولم يكتف السيد بمجانبة المنطق وقطع لسان عبده الذي أفشى أسراره لإبله، إذ نراه يمعن في ساديته بما صار يعمد فيه كل يوم من همس بأسراره على مسمع عبده المقطوع اللسان بمبالغة أشد واحتشاد بما هو حقيقي ومختلق من أسرار المجلس الرهيبة مع تلذذ في رؤية العبد وهو يرتجف مغمغما من هول ما يسمع ومن عجزه عن احتمال سماع أهواله."[١٤]
- تحول علاقتهما من الاتصال إلى الانفصال بعد موت العبد بسبب عدم تحمله الاستماع المتواصل لأسرار سيده دون أن يتمكن من إذاعتها.

المبحث الثاني: تجليات جدلية الحكي والصمت في البنية الحكائية للقصة وثنائياتها

إن تجليات جدلية الحكي والصمت في هذه القصة تبرز في الكثير من تفاصيل بنيتها الحكائية، وخاصة ما تعلق منها بالأحداث وعلائق الشخصيات حيث يبرز التجاذب والتدافع الصامت والمحكي بين الحكي والصمت وبين العبد وسيده.

من تجليات الحكي والصمت في القصة هو أن النبيل حينما يرجع إلى خبائه من مجلس الحكماء ينزع عنه الثياب الزرقاء ويلبس الثياب البيضاء ويتحرر من اللثام الذي قد يرمز إلى التحرر من التكتم المفروض في مجلس الحكماء.

ينطلق لسان السيد بالحديث كل ليلة وبث أسراره إلى عبده مع انطلاق لسان النار التي يقوم العبد (بوبو) بإشعالها في موقدها وتهيئ الشاي بأمر من سيده، "وما أن ينطلق لسان النار من الموقد، وتتبدد الظلمة، حتى يتبدل الحال، وينطلق لسان النبيل أيضا، كما انطلق لسان النار."[١٥] فلسان النار يبدد ظلمة

(١٤) عبد الله إبراهيم وصالح هويدي، تحليل النصوص الأدبية، ص١٧.
(١٥) قصة اللسان، ص ١٥٩.

الليل، ولسان النبيل يكشف المجهول من الأسرار والأحاديث، كأنما الظلمة معادلة للصمت، وضوء النار معادل للحكي. ومادام الحكي في الليل؛ وهو الظلمة الكبرى، فهو حكي خاص، وليس حكيا عاما. إنه حكي الليل على ضوء النار، أي أنه حكي تتخلله أسرار كان يفترض فيه أن يبقى صمتا في عالم الكتمان وفق شروط الحكي في مجلس الحكماء. ثم إن الحكي يتم في الخباء الذي تحيل مادته اللغوية على الاختفاء والتستر. وهذا واقع الحكي في هذه القصة بصفته مادة تواصلية يتكلم فيها متكلم واحد لا يراجعه في كلامه أحد، بحيث لم يرق هذا الحكي إلى درجة الحوار الذي يقوم على الأخذ والرد بشكل متساو. ولعل مرد ذلك راجع إلى مقام الحكي ومقام المقال الذي تتفاوت فيه الدرجة والمنزلة بين المتكلم والمستمع.

تبرز جدلية الحكي والصمت من خلال أحداث القصة المختلفة، حيث نجد تجاذبا بين الحكي والصمت في الكثير منها، بين الحكي المفروض من قبل النبيل والصمت المطلوب من قبل العبد. وفي كلا الحالين فإن الحكي والصمت معادلان للحياة والبقاء والاستمرار؛ فالسيد يحكي لينفس عن نفسه ما يثقل عليها، والعبد مأمور بالاستماع لحكي سيده ثم يصمت بعد ذلك، كأنه بئر لا قعر له. وفي صمته نجاة له من القتل واستمرار له في الحياة.

وهذه الجدلية تذكرنا في جانب منها بقصة شهرزاد وشهريار في ألف ليلة وليلة؛ فشهرزاد تحكي باستمرار حتى تبقى على قيد الحياة ولا تقتل من قبل شهريار مثلما فعل بسابقاتها من النساء اللواتي آثرن الصمت لعدم علمهن بدور الحكي الفعال في استمرار الزواج والحياة، فالسرد والحكي في هذه الحال معادل للحياة، وهو ما ترجمه النبيل بالفعل وطبقه في علاقته بعبده، وهو الأمر نفسه الذي قام به العبد خفية حينما حكى ما سمعه من سيده للإبل، فالعبد أظهر من خلال استماعه اليومي المتكرر لأحاديث سيده أنه مذعن لأمره ومطبق لشروطه، ولكنه في الخفاء كان يتمرد على أوامره ويتحول من مستمع ومتلق إلى متكلم ومرسل.

يفترض في الحكي وجود متكلم ومستمع أو مرسل ومرسل إليه؛ فالمتكلم في القصة هو النبيل، والمستمع هو العبد. نحن هنا أمام فاعلية المتكلم ومفعولية المستمع، فالمتكلم فاعليته حقيقية وليست مرتبطة بالحكي فقط؛ فهو السيد المطاع، والمستمع مفعوليته حقيقية كذلك لأنها ليست مرتبطة بالتلقي والاستماع فقط، بل هي مرتبطة كذلك بكون المستمع عبدا مملوكا لسيده المتكلم. وهنا تتجلى على مستوى جدلية الحكي والصمت أو الحكي والاستماع جدلية أعمق وهي جدلية السيد والعبد، أو من يحق له الكلام/السيد، ومن ليس له الحق فيه، وإنما يجب عليه الاستماع والصمت/العبد. ففي حكاية السندباد، في قصص ألف ليلة وليلة، نجد السندباد البحري، الرجل القوي (الغني) هو الذي يقوم بالسرد، بينما السندباد البري، الرجل الضعيف (الفقير) هو الذي يتلقى السرد[١٦].

(١٦) ينظر كتاب الأدب والغرابة لعبد الفتاح كيليطو، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط٣، ٢٠٠٦م، ص ١١٧.

إن تواصل السيد مع عبده تواصل لا يؤدي إلى تواصل جديد من قبل العبد تجاه سيده أو غيره من الناس، وإنما هو تواصل وحكي نتيجته المرغوبة من قبل مرسله هو الصمت وليس الكلام.

هذه الجدلية يتولد بعضها من بعض، ومن طريف ما تولد عنها هو أن العبد/المستمع تقمص شخصية سيده، وأصبح يحكي ويتكلم والإبل تستمع، فلم يجرؤ على مخالفة أوامر سيده جهارا، فخالفها سرا مع مستمع لا يستطيع أن يتكلم وهو الحيوان/الجمل.

إن قطع لسان العبد وموته بعد ذلك إيذان بتوقف الحكي داخل القصة، وبتوقف السرد بصفته قصة، وتأكيد على أن جدلية الحكي والصمت في هذه القصة قد انتهت بتغلب الصمت على الحكي، لأن الحكي لم يكن فعلا اختياريا، وإنما كان ضرورة للحفاظ على ذات الحاكي/النبيل دونما اهتمام بذات المتلقي/العبد. ثم إن الحكي لم يكن الهدف منه تولد حكي جديد يعكس ذات ناقله، وهو يحكيه، وإنما كان الهدف من كل حكي هو الصمت من قبل متلقيه، دون أن يتحول هذا المتلقي إلى حاك جديد.

الملاحظ في هذا النص السردي أن جدلية الحكي والصمت انعكاس لفعل واحد يتكرر في مضمونه، ويختلف القائمون به الذين يؤثر السابق منهم في اللاحق تأثيرا وجوديا، بحيث يرتبط بقاء أي واحد منهم حيا بقيامه بعملية الحكي وإلا كان مصيره الهلاك. ويتجلى ذلك فيما يأتي:

- الزعيم يحكي لأعضاء مجلس الحكماء، ومنهم النبيل، وهم يستمعون، ويهددهم بالقتل إن هم حكوا ما سمعوه منه ولم يلتزموا بالصمت.
- النبيل يحكي للعبد ما سمعه من الزعيم، والعبد يستمع، ويهدده بالقتل إن هو أفشى ما سمعه من أسرار ولم يلزم الصمت.
- العبد يحكي ما سمعه من النبيل للإبل، والإبل تستمع إليه دونما تهديد بالقتل إن هي حكت ولم تبق على صمتها، لأنها لن تتمكن من الكلام. فالسرد هو الوسيلة الوحيدة للخروج من ورطة أو موقف صعب، السرد وليد توتر بين قوي وضعيف[١٧].

وهذا يدل على أن نهاية هذا التواصل، بين متكلم ومستمع، كانت هي اللاتواصل أي الصمت المطبق. وهذا يستدعي، كما سبقت الإشارة، توقف الحكي التواصلي وتوقف السرد القصصي.

نستشف من جهة أخرى أن هناك نوعا من التدرج في الحكي وفي الدعوة للالتزام بالصمت من الأعلى إلى الأسفل؛ فالزعيم، وهو في أعلى هرم القبيلة يحكي لمن دونه رتبة وهم أعضاء مجلس الحكماء، ومنهم النبيل. والنبيل يحكي لعبده وهو أقل منه منزلة لأنه مملوك له وفاقد لحريته. والعبد يحكي للإبل وهي دونه منزلة لأنها حيوانات عجماء.

(١٧) ينظر: كتاب الأدب والغرابة، ص ١١٦.

مثلما تدرج الحكي من الأعلى إلى الأسفل بحسب منزلة من قام به، تدرج كذلك من قول مشروط بالصمت إلى أن وصل إلى الصمت المطلق لما تلقته الإبل، وهي لا تتكلم، وقطع لسان العبد حتى لا يتكلم مرة أخرى. وكذلك كان فلم يتمكن من الكلام أو التعبير عما يريد قوله بحركة أو إشارة أو غيرها لأنه لم يلبث أن فارق الحياة التي كان يشترط عليه فيها أن يسمع ويصمت.

إن الساحر الأعمى الذي استقدمه النبيل من قبيلة أخرى ليكشف له سبب نفوق الإبل تتجلى فيه جدلية الحكي والصمت، فهو ساحر أي أنه يستطيع أن يعرف بعض الأسرار التي تدخل في نطاق الصمت من خلال استعانته بالجن، ثم هو أعمى أي لا يستطيع رؤية الأمور الظاهرة العلنية غير السرية، ومن ثم فهو جزء من عالم الصمت. ولكنه يستطيع أن يحكي عن بعض الأمور التي تدخل في نطاق عالم الصمت والمخفي عن كثير من الناس. ثم إنه من خارج القبيلة أي من فضاء مكاني لا يعلم فيه شيء عن فضاء قبيلة النبيل. وهذا تجل من تجليات الصمت والسر. وهو بالنسبة للنبيل أداة حدث لاكتشاف المستور والمسكوت عنه واستنطاق الصمت.

اختلى النبيل بالساحر في الخباء ليلة كاملة، وتكرر ذلك مرة أخرى، والليل بظلمته يحيل على الصمت والسكون، ولم يعلم أحد ما دار بينهما، وهو زيادة في الصمت والتكتم. وقد أكد السارد جانبا من هذه المعاني حينما قال: "إن الساحر لن يكون ساحرا لو عرف الخلق له سرا".

لقد كان من المفترض أن تقوم زوجة النبيل بدور العبد، وتكون وعاء لأسرار زوجها، ولكنها ماتت. ولكن هل كانت الزوجة ستصمد طويلا لشروط زوجها ولا تفشي له سرا أم أن القصة ستأخذ اتجاها آخر، وتكون نهايتها مخالفة لنهاية العبد، مع ما عرف عن المرأة من عدم القدرة على المحافظة على الأسرار إلا فيما ندر، وشغفها الكبير بالكلام ومقاسمة الهموم مع المقربات منها؟

إن جدلية الحكي والصمت تؤطر هذا النص السردي دلاليا من خلال مجموعة من الثنائيات المرتبطة بها والمتولدة عنها وأبرزها:

- ثنائية الحكي (حكي النبيل) والصمت (صمت العبد).
- ثنائية الحضور (حضور الحكي) والغياب (الصمت).
- ثنائية الإعلان (الحكي) والإخفاء (الصمت).
- ثنائية الذات (النبيل) والمجتمع (القبيلة).
- ثنائية الظاهر (التواصل) والخفاء (اللاتواصل).
- ثنائية السيد (الآمر) والعبد (المأمور).

- ثنائية الحرية (للنبيل) والاستعباد (للعبد).
- ثنائية الحياة (للنبيل) والموت (للعبد).
- ثنائية الصحة (الإبل والجمل الأبلق والنبيل) والمرض (الإبل والجمل الأبلق والنبيل).

تبرز هذه الثنائية بالخصوص في علاقة النبيل القوية بجمله الأبلق وهو أعز جماله، يقول السارد: "يستطيع أن يفقد أنثاه ويحتمل. يستطيع أن يفقد الخلان ويحتمل. يستطيع أن يفقد حتى بوبو نفسه ويحتمل، ولكن كيف يستطيع الرجل الوحيد الفارس النبيل فقدان أحب الخلق: جمله الأبلق النبيل؟"[١٨].

فبعد تحول الجمل من الصحة إلى المرض مرض النبيل كذلك، أي أنهما صارا في حالة تماه وترابط كبيرين، "بدأ المهري يهزل فبدأ يهزل هو أيضا. عاف الكلأ، وأبى الخروج إلى المراعي، فعاف هو الطعام أيضا، وأبى الخروج حتى إلى مجلس العقلاء. رأى في عينيه الوديعتين حزنا وهما، فرأى بوبو في عيني سيده حزنا وهما أيضا.

مات المهري النبيل بعد أسابيع، فاحترق النبيل بالحمى، وغاب في غيبوبة ظنت القبيلة أنه لن يعود منها"[١٩]. ومع الصحة كان النبيل يحكي، وبعد المرض والغيبوبة صمت عن الحكي.

- ثنائية الترغيب (من قبل النبيل حينما يوهم عبده بأنه صديق له حتى يستمع إلى ما يحكيه) والترهيب (حينما يهدده بالقتل إن هو أفشى أسراره).

والثنائية الأخيرة في ارتباطها بالثنائية الأولى (ثنائية الحكي والصمت) أكثر حضورا في هذا النص القصصي. يتجلى الترغيب فيها حينما يطلب العبد من سيده أن يعفيه من مهمة الاستماع إلى أسراره خوفا على نفسه، مما يدفع سيده إلى التعلل بوحدته وأنه لا جليس له، وليس له من يحكي له أسراره. وحتى يغريه بقبول هذه المهمة أكد له أنه اتخذه صديقا.

ولكن بعد إذعان العبد بالاستماع لما يحكيه سيده وتلقيه لذلك، تحولت لغة الترغيب إلى لغة تهديد ووعيد؛ فالسيد يخاف على نفسه من الزعيم، وقبل ذلك يخاف من سكان الصحراء المعروفين بفضولهم وحبهم معرفة أخبار الآخرين، "والفضول داء يعاني منه أهل الصحراء أكثر من معاناتهم من الوباء الذي أصابهم من قبل"، لذلك يعدهم النبيل عديمي الوفاء لعدم قدرتهم على حفظ ما سمعوه، مما دفعه إلى اختيار عبده بئرا لأسراره التي ينوء بحملها.

يتمثل هذا الارتباط القوي بين الثنائيتين في أن الترغيب والترهيب هما وسيلتا تحقيق هدفي الحكي والصمت، ثم إنهما سياق الحكي والصمت؛ وهو سياق محكي قولا من قبل النبيل، والهدف منه تحقق

(١٨) قصة اللسان، ص ١٦١.

(١٩) قصة اللسان، ص ١٦٢.

فعلين من قبل العبد وهما: الاستماع والصمت، وهما فعلان حاضران في التراث الشعبي العربي الذي يقول فيه الكبير للصغير: "اسمع وابلع".

وهذا ضرب من التواصل التهديدي الذي يحاكيه تواصل آخر وصفه السارد حينما قال:

"راقب لسان النار وهو يداعب لسان السيف بخيوط الضوء."[٢٠] والمداعبة تواصل وحكي بطريقة خاصة أساسها التلاؤم والتكامل، يدركهما العبد حتى يصمت ولا يقع في المحظور.

خاتمة

يمكن أن نجمل أهم نتائج هذا البحث فيما يأتي:

- تعكس جدلية الحكي والصمت التدافع الحاصل بين الذات والآخر، والآخر هنا المختلف. وتبرز الجدلية في هذا النص السردي بين السيد والعبد، والقوي والضعيف، والآمر والمأمور، ومن يحق له الحكي ومن يجب عليه الاستماع والصمت.

- تعبر جدلية الحكي والصمت في هذه القصة عن صورة مصغرة لجدلية أخرى يتحول فيها السيد إلى مسود لسيد أقوى منه.

- تشي جدلية الحكي والصمت بغلبة الصمت على الحكي؛ فالقارئ لا يستطيع أن يعرف مضمون الحكي المتكرر، والذي أضنى العبد فالتجأ إلى حكيه للإبل فهدها ما سمعت ونفقت تبعا لذلك. إنه حكي قوي يتعب ولا يريح.

- تقدم جدلية الحكي والصمت صورة للتدافع الحاصل بين القبائل في الصحراء، حيث يتم تداول المعلومات (الحكي) في نطاق ضيق بين وجوه كل قبيلة مع الحرص على عدم تداولها مرة أخرى (الصمت)، لأن قوة القبيلة، كما ورد في النص، تكمن في أسرارها، فإذا انكشفت (حكيت مرة أخرى) سهلت السيطرة عليها، ومن ثم فالصمت ضرورة وجودية لحماية الذات والقبيلة، كما أن الحكي ضرورة لتطوير معرفتها بالآخرين، وهو بالنسبة للفرد (النبيل) تنفيس عن الذات استعدادا لتلقي حكي جديد.

- تعبر جدلية الحكي والصمت عن عدم الانسجام الحاصل بين قبائل الصحراء، حيث تسود لغة التآمر والتنافس في صمت لا يدرك فحواه إلا زعماء هذه القبائل.

- الغريب في هذا النص السردي أن الصمت هو هدف التواصل وغايته.

---

(٢٠) قصة اللسان، ص ١٦٠.

المراجع

إبراهيم، عبد الله، وهويدي، صالح، (١٩٨٨م) تحليل النصوص الأدبية، ط١، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة.

البهلول، عبدالله، (٢٠٠٧م) في بلاغة الخطاب الأدبي بحث في سياسة القول في نصوص من الأدب العربي القديم، ط١، صفاقس، قرطاج للنشر.

التوحيدي، أبو حيان، (٢٠١١م) الإمتاع والمؤانسة، صيدا، بيروت، المكتبة العصرية.

صليبا، جميل، (١٩٨٢م) المعجم الفلسفي، ط١، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

الكوني، إبراهيم (١٩٩٦م)، خريف الدرويش، ط٣، الجماهيرية العربية الليبية، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

كليطو، عبدالفتاح، (٢٠٠٦م) الأدب والغرابة، ط٣، الدار البيضاء، دار توبقال.

القاضي، محمد وآخرون، (٢٠١٠م) معجم السرديات، ط١، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين.

المراجع العربية بالحروف اللاتينية

al-Bahlūl, Allāh, (2007m) fī Balāghat al-khiṭāb al-Adabī baḥth fī Siyāsat al-Qawl fī nuṣūṣ min al-adab al-ʻArabī al-qadīm, Ṭ1, Ṣafāqis, Qarṭāj lil-Nashr.

al-Kūnī, Ibrāhīm (1996m), Khurayyif al-Darwīsh, ṭ3, al-Jamāhīrīyah al-ʻArabīyah al-Lībīyah, al-Dār al-Jamāhīrīyah lil-Nashr wa-al-Tawzīʻ wa-al-Iʻlān.

al-Tawḥīdī, Abū Ḥayyān, (2011M) al-Imtāʻ wa-al-muʼānasah, Ṣaydā, Bayrūt, al-Maktabah al-ʻAṣrīyah.

al-Qāḍī, Muḥammad wa-ākharūn, (2010m) Muʻjam alsrdyyāt, Ṭ1, al-Rābiṭah al-Dawlīyah lil-Nāshirīn almstqlyn.

Ibrāhīm, ʻAbd Allāh, whwydy, Ṣāliḥ, (1988m) taḥlīl al-nuṣūṣ al-adabīyah, Ṭ1, Bayrūt, Dār al-Kitāb al-jadīd al-Muttaḥidah.

Kilīṭū, ʻbdālftāḥ, (2006m) al-adab wālghrābh, ṭ3, al-Dār al-Bayḍāʼ, Dār Tūbqāl.

Ṣalībā, Jamīl, (1982m) al-Muʻjam al-falsafī, Ṭ1, Bayrūt, Dār al-Kitāb al-Lubnānī.

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية، م ٣٢ ع ٥ ص ص : ٤٤٩ – ٤٦٣ (٢٠٢٤ م)
DOI: 10.4197/Art.32-5.14

The Dialectics of Speech and Silence in the Story "The Tongue" By *Ibrahim Al-Koni*

Sharifa Ibrahim Mohammed Taleb[1] and Mohammed Abdul-Azim Abu Bakr Bin Aazzouz[2]

[1]Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, School of Education, Prince Sattam bin Abdulaziz University, Al-Kharj, KSA and [2]Professor, Department of Arabic Studies, College of Languages, Literature and Arts, Ibn Tofail University, Kenitra, Morocco

s.bintaleb@psau.edu.sa

Abstract. The dialectic of narration and silence is one of the topics that is of great importance in literature in general and in narrative discourse in particular. It is one of the topics worthy of study because it highlights the attractive and defensive side of the text through its narrative components in which a group of elements interact, most notably the characters. It is an image of the disparity in the hierarchy of society in which this dialectic is present, and in which every master turns into a slave to another master**.**

Keywords: dialectic, silence, narrative, connotation, narrative structure, constructional approach**.**